العددين السابع والثامن كانون الثاني وشباط ١٩٨٤

المكتبة العربية

AL-MAKTABA AL-ARABIA

مجلة تعنى بشؤون النشر في لبنان والعالم العربي

رأي في الحداثة والشكل التراثي

ملاحظات حول كتاب

يوميات بصرية لمعماري عربي

بقلم: فريد منصور

لقد امست ازمة الحداثة
(خاصة منها المستوردة من الغرب)،
في صراعها مع الفكر والذوق المحليين، والاصالة (المبنية على التراث،
ازمة عامة شاملة، كما يبدو.
ذلك ان هذه الازمة كانت قد بدأت،
اولا بالشعر والادب والفنون، ثم تخطتها،
فيما بعد، الى ميادين اخرى شتى،
من الحياة الفكرية والاجتماعية والصناعية، خاصة عند شعوب العالم الثالث.
وهذا امر طبيعي اذا ما نظرنا الى مسبباته،
في هذه الفترة التاريخية التي مر بها العالم،
اي خلال ما يقارب المائتي عام الاخيرتين.
ففي هذه الفترة تطور العلم والفن والصناعة في العالم الغربي
(الاوروبي خاصة) تطورا سريعا وكبيرا جدا،
بينما ظل العالم الثالث، والشرق العربي من ضمنه،
في حالة انحطاط وهمود.
الى ان حدث الاحتكاك بين العالمين،
فبدا، اذ ذاك الميزان الحضاري فيهما،
يتغير اتجاهه. فاذا بالنهضة الاوروبية وقد بدأت تتفهقر تدريجيا
وتعقم في النهاية
(بعدما قدمت ما قدمته للعالم):
واذا بنهضته جديدة، في نفس الوقت،
راحت تزور كثيرا من بلدان العالم الثالث، ومنها الشرق العربي،
فتستنهض شعوبها وتدفع بها نحو التقدم الحضاري.

سباق حضاري

الا ان مسار الحضارة الاوروبية هذا، قد انتقل بصورة اكمل الى بلدين كبيرين هما الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، فسار الاثنان، في ان معا، شوطا اوسع واعمق، في تطوير هذه الحضارة، سبقا فيه كلا من الاوروبيين انفسهم، وشعوب العالم الثالث جميعا.

صحيح ان هذه الحضارة الاخيرة، المتطورة الجبارة، قد اوجدت من الاكتشافات والصناعات والعلوم ما هو جديد كل الجدة على الكرة الارضية، بمعنى انه لم يكن معروفا قط في تاريخ الحضارة البشرية من قبل. وهذه الاكتشافات والمصنوعات والعلوم الجديدة المستحدثة، قد اصبحت هي اليوم، بالبديهة، ملكا خاصا بالدولتين الكبريين، تخفيان اسرارها وتتمنعان عن افشائها او تصديرها؛ وعلى العالم الثالث، ههنا، ان يتكل على هذين البلدين الكبيرين او على احدهما، اتكالا كليا، باهظ الثمن غالبا، ان هو اراد ان يستعين ببعض تلك الاكتشافات والمصنوعات ويستغلها في مجالات الاستهلاك او الانماء او الدفاع الخ..

ان هذا الامر هنا، يبدو طبيعيا وفي هذا الحقل المستحدث بالذات.

حرية التصرف

اما في ما يتعلق بمجال الانتاجات الاخرى التي كانت موجودة في السابعة، اي في تاريخ الحضارة العالمي، يختلف اختلافا تاما. ذلك انه ليس على الدول النامية، في هذا المجال، ان تستورد هذه النتاجات كما هي جاهزة كاملة، فتتكل بذلك وبالتالي، على الدولتين الكبيرين اتكالا تاما كاملا، كما قلت سابقا، بل ان كل ما يلزمها هنا، للقيام بانتاج محلي مماثل، هو تعلم التقنية والتزود بالمواد الخام.

واذكر هنا على سبيل المثال، الفنون عامة، بما فيها النحت والعمارة اضافة الى المشاريع الانشائية وكثير من الادوات الخ.

فاذا نحن اردنا ان نبني بيتا، او ننظم قصيدة او نداوي مريضا، فليس من المحتم علينا ان نستورد البيت او القصيدة او الطبيب من الغرب. فهذه امور كانت موجودة قبل النهضة الغربية الحديثة، بل وكانت قد ازدهرت مرارا من قبل، في تاريخنا الحضاري الطويل بالذات، وكان الغرب نفسه قد تعلمها منا بدوره ـ كما نتعلمها نحن منه الآن ـ واستفاد من تجاربنا فيها، وما زال يستفيد من بعضها حتى يومنا هذا.

مجهود خلاق

وهكذا فليس امامنا، في نفس الوقت، وبعدما تعلمنا التقنية وحصلنا على المواد الخام لها، الا ان نشرع في انتاج تلك الحاجيات الفكرية والمادية الضرورية في حياتنا، بالشكل والمحتوى الذين تتطلبهما بيئتنا المحلية وطبيعتنا ذات الميزات الخاصة.

وفي مجال الانتاج المحلي هذا، فانه من المنتظر، بل من المنطقي والبديهي ان نعتمد على فكرنا نحن عينه، وقدرتنا وذوقنا وتصوراتنا الخاصة بنا، حتى يخرج اذ ذاك، من بين ايدينا بيت (او قصيدة او دواء) عربي بكل معنى الكلمة، يتناسب مع بيئتنا المناخية الاجتماعية والجغرافية، وحاجاتنا المحلية.

غير ان ما نراه من حولنا في الواقع، وفي كثير من الميادين، يختلف اختلافا يكاد يكون تاما ومذهلا.. واذا بنا نجد منزلنا في القرية او المدينة، او لوحتنا الزيتية، او حتى قصة شعرنا وغذاءنا نفسه، وقد انقلبت بين ايدينا الى اشكال غربية مقلدة تقليدا مشينا.. وفي هذا لعمري ما فيه من نشاز وشواذ وابتعاد عن طريق المنطق والذوق والحكمة.

عودة قسرية الى الماضي

ولا بد هنا من ان اشير الى ناحية هامة، في فن العمارة، بدا الغرب نفسه ينظر اليها نظرة جد وخطورة ويعطيها من البحث والدراسة ما تستحقه في الواقع، وهي الناحية المتعلقة بالحياة النفسية والعقلية، ومدى تاثرها باشكال المباني المستحدثة سلبا او ايجابا. وقد التقيت مؤخرا، استاذة متخصصة تدرس باحدى جامعات الولايات المتحدة، مادة جديدة تدعى: علم الاجتماع العمراني. وهي، اي المدرسة، الى جانب تدريس هذه المادة، تشرف في الآن نفسه، على ما ينتج من تصاميم داخل الجامعة، فتحكم عليها، او على اجزاء منها، بالرفض او القبول او التصحيح والتحوير، وفقا للاختصاص الجديد، اي وفقا لامزجة ونفسيات الناس الذين سينتفعون من هذه التصحيحات.

وبالطبع، وكما يحدث، غالبا في الغرب، عندما يثبت نتاج مستحدث ما، ضرره على الناس، فان العلماء والبحاثة، يتجهون الى الماضي، الى التجارب السالفة في التراثات العالمية، لكي يروا كيف عالج القدماء هذه الاشكالات، وما هي الحلول التي وضعوها لها.

وقد علمت انهم وجدوا مؤخرا، في المنزل المغربي القديم وتكوينه، ما ارشدهم الى تصويب بعض الاخطاء الحديثة الهامة.

ذلك ان المهم في النهاية، في مجال البناء والمشاريع العمرانية، هو في المرتبة الاولى: ان يفي البناء باغراض ومتطلبات الحياة اليومية،

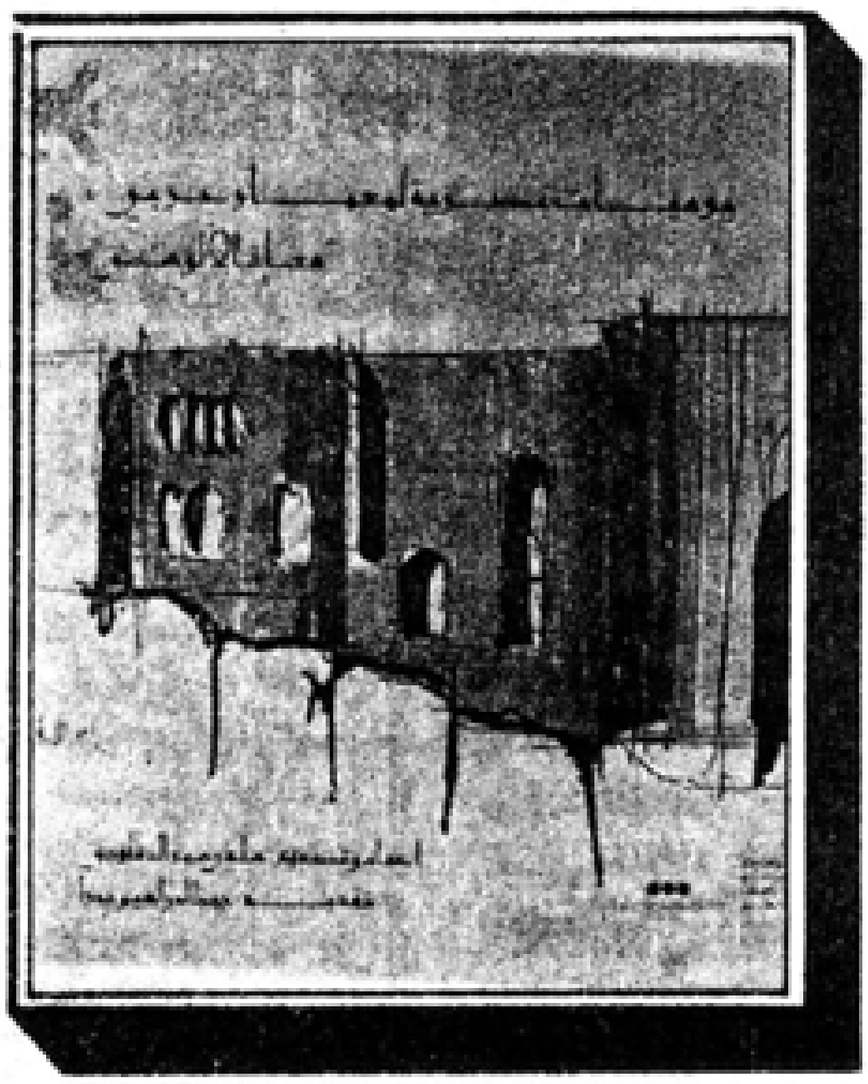

جبرا ابراهيم جبرا يقيم كتاب « يوميات بصرية لمعماري عربي »

بقلم: جبرا ابراهيم جبرا

وفي المرتبة الثانية راحة السكان النفسية والاجتماعية، اما الناحية الجمالية فتاتي في المرتبة الثالثة.

هذه المقدمة الموجزة، كان لا بد منها لكي نتطرق الى موضوع كتيب معماري جديد، صدر مؤخرا، بعنوان: « يوميات بصرية لمعمار عربي ». لمصممه معاذ الالوسي.

وهذا الكتاب يشتمل على رسوم سريعة، (اسكتشات) وهي في شكلها العفوي هذا، تمثل افكارا او اقتراحات لمباني وانشاءات سكنية مختلفة، اي انها افكار افتراضية وطروحات اولية، ولهذا لا يمكن الحكم عليها الا على هذا الاساس نفسه.

ذلك ان الفرق بعيد وواضح، بين ما تطرحه الفكرة على ورق، وبين ما تظهره التجربة الواقعية الصلبة على الارض بكل ما تحمل هذه التجربة الواقعية من معان.

لفتة نحو التراث

والالوسي يبدو من خلال طروحاته هذه، مهتما بالناحية التراثية من العمارة العربية، وفي اكثر الظن انه مهتم بالمظهر التراثي الخارجي للعمارة العربية القديمة، اكثر من اهتمامه بتكوينها الهندسي الداخلي. هذا في الاقل، ما تظهره رسوم الكتاب. ويصعب التاكد من هذا الامر دون الرجوع الى المباني والانشاءات التي انجزها المعماري هنا او هناك على ارض الواقع.

مقارنة

قلت ان اهتمام المعمار الالوسي التراثي واضح في رسومه. وذلك في اقتفائه اثر القنطرة وشكل او اخر من اشكال المنازل القديمة، داخلا وخارجا، في هذه البلد العربي او ذاك. وهذا امر لا شك في كونه مهم ومقدر. خصوصا اذا ما نحن قارناه بما يبنى عادة في بعض المدن والعواصم العربية، في هذه الحقبة من العصر، والذي لا ياخذ فقط الشكل ومواد البناء الغربيين بحذا فيرهما؛ بل انه اضافة الى ذلك وتحت تاثير الجشع التجاري المحض (اي الذي لا هاجس له سوى استغلال كل فترة من البناء باعلى درجة ممكنة من الكسب المادي فقط)، يمسخ الشكل الغربي نفسه مسخا يشمئز له، في اول مقام، الذوق الغربي نفسه. ناهيك عن الاخلال المشين بين ظاهر العمارة من جهة، والمنظر الطبيعي العربي المحيط بها، من جهة اخرى. وكذلك بين التكوين الداخلي للمنزل وبين ذوق ونفسية الانسان العربي ذاته وحاجاته السكنية الضرورية.

لقد كانت القنطرة قديما، من اللزوميات المحتمة في اي انشاء كان، ولم يكن البنيان ليقوم بدونها. وكذلك القبة، اما اليوم، وقد اصبحت يد المعماري والمهندس مطلوقة، بالنسبة لتوفر مواد الاسمنت والحديد والحجر وما يرافقها من تقنيات والات متطورة، فقد اصبح المجال مفتوحا امام الابتكار والتجديد، سواء بالرجوع الى التراث وتطويره او بغير الرجوع اليه والنقل عنه.

واني اتساءل، لماذا، والحالة هذه، لا يجهد المهندسون والمعماريون العرب انفسهم، اليوم، من اجل ايجاد اشكال عربية (اشدد على كلمة عربية) جديدة، غير القنطرة والقبة وسواهما من التراكيب والاشكال الفنية القديمة. او بالاحرى لماذا هم لا ياخذون بالروح المعمارية الشرقية القديمة وحسب، (وليس التفاصيل)، المدروسة بعمق وبجهد عبقري. فيطورونها، ويضيفون اليها، ضمن دائرة ما تتيحه لهم المواد البنائية المستحدثة من جهة، والتقنيات والاليات الحديثة من جهة ثانية، هذا بالاضافة الى ما ظهر في الساحة، حتى الآن، من مستجدات في عالم البحوث العلمية، مثل علم النفس والاجتماع والبيئة الخ؟.

جهد مشترك

وبما ان هذا العمل الضخم، يصعب بل يستحيل انجازه على يد فرد واحد، مهما بلغت قدرة وثقافة وموهبة هذا الفرد، في هذا الميدان، فاني اتساءل من جديد: لماذا لا تشترك، في ان معا، ثلاث قوى خلاقة: قدرة المعماري وقدرة المهندس المدني وقدرة النحات الفنان وذلك لانشاء شكل او اشكال هندسية عربية جديدة ومبتكرة، في كل ناحية من النواحي المطلوبة، سواء اكانت احتياجية، او معمارية او جمالية فنية، تلائم الانسان والبيئة والطبيعة، في البلدان العربية؟.

« هذه اليوميات » البصرية يمكن ان تسمى ايضا « تنويعات على القوس »، وكان هذا الفنان معماريا عربيا يضطلع على الموضوع مغزى خاصا، فقد اقترن العرب في اذهان الناس اقترانا وثيقا بعمارة الاقواس حتى ليتساءل المرء الم يكن العرب هم الذين اخترعوها. ولما كان معاذ الالوسي عراقيا، فانه قد يؤكد على ان القوس استعملت لاول مرة بشكل كبير وذي وظيفة بنيوية عند البابليين والاشوريين، وهؤلاء هم، حضاريا وتاريخيا، العرب الاوائل الذين هاجروا شمالا من الجزيرة العربية لكيما يؤسسوا حضارة تلو حضارة في المدن العظيمة التي انشاوها على ضفاف دجلة والفرات. وهكذا فان انغماسه في موضوع القوس المعمارية انما هو ضرب من البحث في دخيلة النفس، وتغلغل في اعماق الذاكرة الجماعية ـ انه ضرب من العودة الى الجذور.

على المرء هنا ان يحذر لئلا يفترض، كما يفترض فيما يبدو الكثيرون، ان المهندس المعماري، بمجرد استخدامه القوس بشكل ما مهما يكن خارجيا، يحيي التراث العربي. والاستاذ الالوسي، كمفكر ومصمم، ابرع من ان يرضى بمثل هذا الموقف السهل التبسيطي ـ وهو موقف ادى في السنوات الاخيرة الى الكثير من العمارة الرديئة. انه شديد الوعي لكل ما يجب ان يدخل عضويا في التخطيط لكي يجعل من القوس لا مجرد استمرار ظاهري للماضي، بل عاملا بنائيا جوهريا في تجسيد رؤية

للحاضر، توحي بالماضي ولكنها لا تسقط تحت عينه. ليس صمة مهندس في العالم، عربيا كان ام غير عربي، يستطيع ان يجترح مرة اخرى معجزة « قبة الصخرة » بالقدس: وان المرء ليتساءل هل كان ميكيلا نجلو يعرف شيئا عنها، وما الذي كان ليقوله عنها لو كان يعرفها. ولكنها، شانها شان العديد من المباني العربية العظيمة الاخرى التي اعتمدت التنويع على موضوع القوس، تقف مصدرا للالهام والتحدي اما المعماريين العرب اليوم. وعندما نذكر حصن الاخيضر (المقام في القرن السابع او الثامن للميلاد) في اواسط العراق، ناهيك عن العمارات العباسية الرائعة التي ما تزال قائمة في بعضها ببغداد، بما فيها من تراكب للايقاعات البصرية المبنية على القوس، فاننا نجد المزيد من التبرير لهذا الهوس الخلاق بالقوس في تخطيطات مهندس عربي.

ما هي القوس بالضبط؟ يقول ليوناردو دافنشي: « ما القوس الا قوة بسببها ضعفان اثنان. لان القوس في المباني تتكون من قطعتي دائرة، وبما ان كلتي القطعتين ضعيفة جدا بحد ذاتها وتميل الى السقوط، وبما ان الواحدة تقاوم سقوط الاخرى، فان الضعيفين يتحولان الى قوة واحدة ».

انها ضديد جميل، هذه القوة التي « يسببها ضعفان » ـ بالمعنى الفيزيائي الفعلي. وبالمعنى البصري ايضا، يجد المرء متعة في « السقوطين » الاثنين اللذين يقاوم كلاهما الاخر: ان ثمة ايحاء بقوة عاطفية في الخط الذي يتصاعد من الارض وينحني مع السماء ليسقط ثانية الى الارض. واذ يتكاثر هذا الشكل، فان وقعه في الغالب اشبه بالموسيقى التي تملأ الصدر بجذل او انشراح فجائي يكاد يعجز عنه اي تحليل.

لعل هذا هو الوقى الذي تبحث عنه وتحققه اعمال معاذ الالوسي، حيث تستخدم وسائل معمارية اخرى لخدمة هذا الغرض الاساسي من القوس. ان الفضاء في هذه الرسوم يحتوي ويطلق على غرار معين، يؤدي الى الاحساس بالمزيد من الفضاء. ويتم ذلك كله ضمن مقياس انساني جدا. اذ يبدو ان حوار الاقواس يجري بمصطلحات انسانية: فالمرء قد يشعر انه اطول قامة، واكثر كبرا، حين تبقيه الدرامة المحيطة به، او الواقعة تحت بصره، في المركز من الاشياء، ولا تنال ابدا من قامته التي له حقه فيها.

لنا ان نسترسل في التامل على هذا النحو، او اي نحو اخر، وقد ركزت انا على القوس، غير ان هذه التخطيطات توحي ببحث متعددة كثير الخيال يماثل ما يحاوله الشاعر في دفتر ملاحظاته. فتصيد الشاعر للصور اللفظية يوازيه هنا تصيد المهندس المعماري للصور البصرية ـ والمحك في كلتي الحالتين هو القدرة على الايحاء. واننا اجد الايحاء في هذه « اليوميات » دائبا في عمله، جاعلا من كل تخطيط قطعة شعرية ماتعة مكتفية بذاتها ضمن حالتها الذهنية ولكنها، في الوقت نفسه، تلمح الى الصنيع البديع الكامل الذي لا بد ان يلحقها. ●

منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة

العلامة ميرز حبيب الله الخوئي
الجزء الاول
مؤسسة الوفاء ـ بيروت

كتاب نهج البلاغة للامام علي، من اهم الكتب الفكرية على الاطلاق، فهو يعتبر بحد ذاته موسوعة علمية وفكرية وفلسفية، يحوي الكثير من الشروحات عن الدين الاسلامي. وكتاب نهج البلاغة، جمعه الشريف الرضي ابو الحسن محمد بن الحسين الموسوي، فيه من الفنون البلاغية ووجوه الفصاحة والحكم الالهية والمواعظ، يقول المؤلف عن كتاب نهج البلاغة «علما ان ذلك يتضمن من عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربية وثواقب الكلم الدينية ما لايوجد مجتمعا في كلام ولا مجموع الاطراف في كتاب اذ كان امير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة ومواردها ومنشا البلاغة ومولدها. ومنه عليه السلام ظهر مكنونها وعنه اخذت قوانينها وعلى امثلته حذا كل قائل خطيب وبكلامه استعان كل واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصروا، وتقدم وتاخروا».

وقد حاول الكثيرون من الفقهاء والعلماء شرح نهج البلاغة، لشهرته وعظيم ما جاء فيه من معلومات قيمة، منهم الشيخ سعيد الدين هبة الله الراوندي، والفاضل الاديب عز الدين عبد الحميد بن ابي الحديد المعتزلي البغدادي، والشيخ الحكيم ميثم بن علي بن ميثم البحراني.

١ ـ « اني ضبطت في الشرح اعدادها في المتن من الخطب المختارة والكلام المختار وغيرهما، والداعي لذلك الضبط والتعداد تسهيل الامر للطالبين. وسهولة الحوالة والتناول للمتناولين، فانه ربما يذكر في شرح كلام له عليه السلام ايات شريفة، وروايات لطيفة، وتحقيقات عميقة، ونكات انيقة، ثم يجيء كلام اخر له عليه السلام على نسق كلامه السابق يقتضي شرحه ذكر ما تقدم ذكره استظهارا او استشهادا...

٢ ـ اني رمت ان افصل مباسط خطبه عليه السلام ومفصلات كلامه بفصول معدودة مضبوطة، وربما ذيلتها بتذييلات رائقة، واردفتها بتنبيهات فائقة، حسبما اقتضته الحال والمجال..

٣ ـ اني فصلت بين اللغة والمعنى والاعراب، وميزت بين القشر واللباب واشرت في اللغات الى المواد وما عساه يشكل من الهيئات ليتضح مباني الكلمات، واوردت في الاعراب من النكات العربية، و اللطايف الادبية ما فيه تشحيذ للاذهان وتقريب للافهام، واتيت في بيان المعنى لكل من الفقر، بما يناسبها من الايات والروايات والاثر، استنادا واستدلالا، او لمحض المناسبة والارتباط..

٤ ـ اني مزجت الشرح بالمتن مبالغة في توضيح المعنى وايضاح المرام حتى صارا بمنزلة واحد من الكلام، على احسن نظام وانتظام..